المقتطف

الجزء الرابع من السنة الحادية والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٧ الموافق ٢٨ شوال سنة ١٣١٤

مدينة القيروان

لحضرة العالم الفاضل السيد محمد بك بيرم

من خطبة تلاها باللغة الفرنسوية في الجمعية الجغرافية المصرية في ٢٠ مارس

قصدت القيروان في اواخر اغسطس الماضي فقمت اليها من مدينة تونس فبلغت سوسه اولاً وهي المرفأ الثاني في الايالة التونسية وسرت منها الى القيروان في ترامواي تجرهُ الخيل فبلغتها الساعة العاشرة ونصف صباحاً بساعة باريس. اذ الساعة المعتبرة رسمياً في الايالة التونسية هي ساعة باريس لا الساعة الفلكية الحقيقية

والقيروان جنوبي مدينة تونس وبينهما ٥٩ كيلومترًا وهي في الدرجة السابعة والدقيقة ٤٥ من الطول الشرقي بالنسبة الى باريس والدرجة ٣٥ والدقيقة ٤٢ من العرض الشمالي واسمها فارسي اصلهُ "قروان" اي محل النزول او الاجتماع سُميت كذلك لان عقبة بن نافع فاتح افريقية في زمن معوية نزل فيها بجيشهِ واتخذها قيروانًا لهُ. وكان في مكانها غابة عظيمة ملتفة الاشجار كثيرة الوحوش فازالها وبنى المدينة مكانها سنة ٥٠ للهجرة. وقد اختارها وطنًا لهُ لان هواءها يشبه هواء الحجاز ولانها بعيدة عن البحر فيكون بمأمن من سفن الاعداء. والعرب يكرهون البحر ولا يصبرون على مخاطرهِ ولذلك لم يشتهروا بالملاحة ولا رضوا بفتح ترعة السويس مع ان فتحها كان ميسورًا لهم وقد قيل لهم فيهِ من ايام عمرو بن العاص فعارضوهُ

وكان العرب الذين فتحوا افريقية لا يتقون بالامم المجاورة لهم فانشأوا هذه المدينة موافقة لاخلاقهم وعاداتهم لتكون لهم خاصة ولذلك صارت عاصمةً لافريقية بل لسائر بلاد المغرب. ويحيط بها الآن سهل فسيح لا شجر فيهِ يزرع حبوبًا وقد حُصد زرعهُ قبل ان زرتها فرأيتهُ اجرد

قاحلاً . والى غربيها جبل الباطن وعلى مقربة منها منازل قبيلة جلاص وهم قوم من البربر مشهورون بالحمّة والاعتداء يدلُّ على اخلاقهم مَثَلٌ عند اهل هاتيك البلاد وهو " الجلاصي يدخل بكلبه يخرج بعاصي " والعامي الجل الكبير يشيرون بذلك الى احتيالهم واختلاسهم

وبلغت القيروان في زمن الاغالبة سلاطين تونس مبلغاً من الحضارة والمناعة جارت به بغداد قبل ان تاطرتها قرطبة عاصمة الاندلس . وكان سلاطينها في المقام الارفع من العز والجاه وفخامة الملك حتى بلغت سطوتهم الحرمين الشريفين وخُطب لهم بالخلافة

وهي وطن اعظم عائلة امتلكت الديار المصرية واذاقتها نعيم الحضارة الفائقة في عصرها اعني بها عائلة الفاطميين غير انهم لما انتقلوا الى وادي النيل تركوا القيروان والمهدية[1] واستعاضوا عنها بالقاهرة المعزية التي بنوها عاصمة لملكهم

لكن بقي في القيروان مع ما المَّ بها من غِيَر الدهر وكوارث الحدثان اثران عظيمان وهما الجامع الاعظم وصقيبة الاغالبة . واذا ذُكرت القيروان تبادر الى الذهن بسطها واحرمتها الصوفية كأنها لا تذكر بغير ذلك مع ان هذين الاثرين من اعظم ما تذكر به البلدان

اما الجامع الاعظم فقد شرع في بنائه العرب عند اول فتحهم لافريقية ولذلك حلَّ عند المسلمين محلاً رفيعاً وصار في عيون الاهلين حرَماً مكرَّماً فلا يسمحون بدخوله لمن ليس منهم . وقد كان في مبدإ امره صغيراً ساذجاً كسائر مباني العرب في صدر الاسلام ثم اتسع وزاد رونقاً باتساع سلطة الاغالبة في المغرب فلما اراد زيادة الله بن الاغلب في القرن الثالث من الهجرة ان يوسع القيروان عاصمة ملكه حسبما دعت اليه احوال عصره وسّع الجامع الاعظم جهاً وبالغ في نقشه وزخرفته وانفق على ذلك ثمانين الف دينار على ما ذكره المؤرخون وهي تساوي ستين الف جنيه بعاملتنا الحاضرة . ثم قام المعزُّ بن باديس الذي حكم البلاد من سنة ٤٠٦ إلى سنة ٤٥٤ واتمَّ بناءهُ وزاد في زخرفته وتركهُ على الحالة التي يشاهد فيها الآن

وهو اعظم جامع في ايالة تونس بل في قارَّة افريقية كلها ولا يستثنى الجامع الازهر لانهُ يزيد عليه اتساعاً . ومنذ عهد قريب ارادوا ان يغيروا بلاط صحنه فوضعوا فيه ثمانية آلاف رخامة فلم يغطوا بها الاَّ ثلثي الصحن فطول الصحن وحدهُ ستة وستون متراً وعرضهُ كذلك . وشكل الجامع من الداخل مثل شكل الجامع الازهر تماماً لان الذي بنى هذا تحدّى ذاك ولو قصَّر عنهُ في مساحته . وفيه ميضأة جديرة بان يحتذيها الازهريون نموذجاً في

(١) مدينة على شاطئ البحر جنوبي سوسه بناها عبيد الله المهدي اول الفاطميين

النظافة وحسن الشكل وسهولة الاستعمال . ولم يزل سقفهُ على حالهِ الاول في بعض جهاتهِ والمنبر والحاجز الذي يحيط بمقصورة السلطان من زمن المعزّ بن باديس من الشكل المعروف في مصر بالمشربيّة وعلى دائر الحاجز من خارجهِ وداخلهِ كتابة كوفية مذوّاة هكذا "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآلهِ وسلم تسليماً مما امر بعمله ابو تميم المعزّ بن باديس بن المنصور سلام الله عليهِ" ولم اتمكن من قراءة الكتابة كلها لشدّة الظلام حينئذٍ وضيق الوقت . وكان الناس الذين يرونني احاول قراءتها يستغربون اهتمامي بها وقال لي الموكلون بالجامع انهُ لم يخطر على بال احد منهم انها كتابة تُقرأ

ومما يجدر ذكرهُ ان ارض هذه المقصورة غير مرتفعة عن ارض الجامع بخلاف ما نراهُ في غيرهِ من الجوامع في البلاد الاخرى إمّا لاختلاف المذهب او لان سلاطين القيروان كانوا اقرب إلى التواضع والدعة

وفي هذه المقصورة باب يُدخل منهُ الى مقصورة اخرى كانت مكتبة لكتب الجامع وفي زاوية من زواياها اسلحة قديمة من الدروع والخوذ والرماح ينسبها اهل القيروان الى الصحابة والفاتحين رضوان الله عليهم . وهي ملقاة على الارض وقد علاها الصدأ والغبار ولم ارَ لها اقلّ شيء من الاكرام في عيون الذين هناك على خلاف ما جرت بهِ عادة المسلمين بل عادة كل الامم . وقد قيل لي انها كانت كثيرة فضاع اكثرها ولا غرابة في ذلك ما دامت مطروحة في زوايا النسيان

وفي هذه المقصورة ايضاً خزانتان كبيرتان مملوءتان برزم من الورق مربوطة بالحبال والامراس مختلطة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل يملؤها الغبار والتراب ونسج العنكبوت وهي كل ما بقي من مكتبة القيروان التي اعتنى سلاطينها بجمعها . واذا نظر اليها الناظر لم يخطر على بالهِ ما فيها من الكنوز الثمينة حتى انني لم اتحقق قط صدق المثل القائل في الزوايا خبايا كما تحققتهُ هذه النوبة فان هذه الرزم كلها رقوق من جلد الغزال مكتوبة بالقلم الكوفي بخط جميل ومموّهة بالذهب ومزدانة بابدع النقوش والالوان وهي قطع مصاحف قديمة وكتب حديث وفقه مكتوبة كلها في القرون الاولى من الهجرة وقد عبثت بها الايام فجُمعت في هذه الرزم بلا ترتيب ولانظام الكبير مع الصغير والصغير مع الكبير صفحة من هذا المصحف وصفحة من ذاك مع صفحات من كتب اخرى في مواضيع مختلفة وهلمّ جرًّا . رأيت هذه الرزم وتكتكتها وقلّبتها وقد انصدع فؤادي لما حلّ بها ثم فارقتها متحسرًا عليها متأسفًا على بقائها في مكان تُضيع فيهِ ويُجهل قدرها

وقد اتيح لي ان زرت كثيرًا من المدن بل اكثر العواصم الاسلامية ولم اشاهد قط مجموعة كونية مثل هذه حتى يمكنني ان احسبها نادرة في بابها

واول ما تعلقهُ بعد ان تركتها ان وجَّهتُ الانظار اليها ولفتُ لحسن الحظ من انكفَّ بادارة الاوقاف التونسية شابًّا ذكي الفؤاد واسع الاطِّلاع فلم اكد اذكر لهُ امرها حتى ادرك مرادي واهمية ما انا طالبهُ . ولي ثقة تامة الآن انهُ تدارك امرها واتمَّهُ . وعدني بهِ فانقذها من الضياع التام فقد وعدني انهُ ينفق خمسة آلاف فرنك على ترتيبها وحفظها حتى يتيسر للزائرين ان يروها ويطَّلعوا على ما فيها. وسيتال الفخر بانهُ انقذ من التلف كنوزًا من اثمن كنوز المسلمين لا سيما وان البلاد التونسية فقيرة بالآثار التاريخية فاذا ضاعت هذه فليس فيها ما يستعاض بهِ عنها . ولا ارتاب ايضًا ان المسيو روسّي الكاتب العام في الحكومة التونسية (وهو من المولعين بالآثار العربية) يساعد على هذا العمل الذي يهمُّ اهل العلم على العموم

ويظهر لي ان كل ما في المكتبة الخديوية من الكتب الكونية قليل جدًّا بالنسبة إلى ما في جامع القيروان فان كان في المكتبة الخديوية عشرة مصاحف بالقلم الكوفي ففي تلك الخزانتين مئة. وان كان في المكتبة الخديوية ترعان او ثلاثة من المصاحف المختلفة الحجم ففي القيروان مئة نوع وهي اجمل خطًّا وابدع نقشًا وسيكون منها اعظم مكتبة بالقلم الكوفي . وقد همني امر هذه الكتب بنوع خاص لان المرحوم والدي اهتم بلم شعثها وحفظها من الضياع لما تولى ادارة الاوقاف التونسية ثم خرج من البلاد قبل ان يتمَّ لهُ ما ارادهُ

ولما تركت هذه المقصورة ذهبت لارى المأذنة وهي مربعة الشكل كاكثر المآذن في جوامع تونس وارتفاعها قليل لا نسبة بينهُ وبين عظم الجامع وبالقرب من الباب الذي يصعد منهُ اليها صفيحتان من المرمر على احداها كتابة رومانية بهذه الصورة

IANI. ONINI. FILI
VRELLI. ANTONINI
LIVIDI. NERVAE. AD. NEPOTIS
LET. DEDICAVERVNT.

ومعناها ان اولاد يرحنا اونيوس ونقرا على اولاد اخ انطونيوس ليديفوس نرفا . وداخل المأذنة نطعة ثالثة من الرخام مكتوبة بحروف رومانية ايضًا وعلى بعض الدرجات نقوش كثيرة تدل على انها منتزعة من بناء قديم ولا سيما واحدة منها على صورة سمكة كبيرة جميلة

النقش . والناس لايعرفون عدد تلك الدرجات ويتشاءمون من عدها لكني احتلت على معرفة عددها فوجدتها ١٣٦ درجة

ولم يكن يسمح لاحد من غير المسلمين بدخول القيروان ومن تجاسر على دخولها قدمة مدرّ . وكانوا يعتقدون انهُ اذا عصفت الريح شديدًا وكان لها حنين مخصوص فذلك دليل على ان احد الكفّار دنا من المدينة . غير ان الاحتلال الفرنسوي قد سكن عصف الرياح . وترى اليوم اليهود والنصارى يدخلون مدينة القيروان ويزورون ضريح احد صحابة النبي عليهِ الصلاة والسلام وقد غطوا جدران المأذنة باسمائهم في ظلال البنادق الفرنسوية يحملها جنود من التونسيين

اما السيد الصاحب المشار اليهِ فهو ابو زمعة البدلي رضي الله عنهُ . وقد جدد محمد باي المرادي امير تونس بتعمير مقامهِ سنة ١٠٧٢ قائمهُ على غاية الفخامة والاتقان . ويتبرك المسلمون بزيارتهِ من كل الاقطار وهو خارج المدينة . وعلى بضع دقائق منهُ الاثر الثاني الذي ذكرتهُ آنفًا اي فسقية بني الاغلب وهي حوض كبير من المرمر تراهُ فتنطفئ بحيرة لاتساعهِ يصبُّ فيهِ الماء من عين الشريشيرة ثم يجري منهُ الى المدينة . وكثيرًا يغرق فيهِ الذين ينزلون اليهِ لغسال وقد مرّت عليهِ قرون عديدة وهو مردوم تحت الثرى والارض تزرع فوقهُ فيرجع بعضهُ الى حالتهِ الاولى الاّ الآن

وبقيت القيروان زمنًا طويلاً دارًا للعلم والعلماء في بلاد المغرب . قيل سأل بعضهم رجلاً قادمًا منها عمّا اذا كان يعلم عدد العلماء المدرّسين في جامعها فقال عم مئتان وخمسون فقال لهُ وكم منهم يحقّ لهُ لبس الطيلسان فقال ثلاثون . ولبس الطيلسان كان خاصًا حينئذٍ بكبار العلماء الراسخين . فتأوّه السائل وقال الله اكبر ذهب العلم من القيروان . ولو سأل اليوم عن عدد العلماء فيها لما وجد غير سبعة مدرسين يدرّسون فيها العلوم الغربيّة . الاّ انهُ يرى فيها كثيرًا من مدافن العلماء ومزاراتهم

وقد لحق القيروان من الحروب الاهليّة اكثر مما لحق غيرها من العواصم واول داهية دُهمت بها ان الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ارسل عليها عربان الصعيد من مصر سنة ٤٤٠ للهجرة فنهبوها ودمروا مبانيها تأديبًا للمعز بن باديس لانهُ ترك مذهب الشيعة واتبع مذهب اهل السنّة وحمل اهل بلاده على اتباع مذهب مالك والخروج عن طاعة المستنصر واعترف بخلافة القائم بأمر الله العباسي . ومن ذلك الحين لم تقم للقيروان قائمة وصارت تونس للجميع

وفي القيروان قبل مؤسس العائلة الحسينيّة القائمة بتونس الآن وذلك سنة ١٧٠٥ بعد

حصار طويل وحروب شديدة . وكانت مجمعاً لكثير من القبائل التي قاومت الفرنسويين سنة ١٨٨١ فحلّ بها من جرّاء ذلك شيء كثير . وقد زال سورها وتغيرت هيئتها والتغيير متواصل فتهدّم منازلها القديمة ويستعاض عنها ببيانٍ جديدة على الطراز الاوربي . وفتحت فيها الشوارع الواسعة وبنيت الحانات والملاهي ولا يمضي سنون كثيرة حتى تزول هيئتها القديمة كلها ولا يبقى لها من المعالم التاريخيّة والمشاعر الدينيّة غير ما جاء عنها في كتب التاريخ او تحفظهُ ذاكرة اهلها و يتناقلهُ الناس جيلاً بعد جيل

كتاب تنسن

خلّصنا في الاجزاء الثلاثة الماضية رسائل الرحّالة تنسن الثلاث وقبل ان نتمّ تلخيصها صدر كتابهُ الموعود عن وصف رحلتهِ بالتفصيل وهو كتاب كبير في مجلدين عُرض على طابعي الكتب وناشريها قبل طبعهِ فدفع بعضهم فيهِ خمسة آلاف جنيه وبعضهم سبعة وبعضهم عشرة اي كما يدفع طابعو الكتب في مصر والشام لمؤلفيها او اكثر قليلاً ! فقبل تنسن بما دفعهُ هؤلاء عشرة آلاف جنيه ذهباً رغماً جزاء ما لقيهُ من المشاق والمخاطر بل جزاء حزمهِ وعزمهِ وعلوّ نفسيتهِ . فتقدوهُ اياها وطبعوا الكتاب وهم يظنون انهم لا يخسرون ان لم يكسبوا . طبعوا اربعين الف نسخة فبيعت كلها حالاً فاعادوا طبعهُ وقد اوفروا النفقات وصاروا يجنون ربحاً طائلاً قبل ان تنفد الطبعة الثانية

وطابعو الكتب وناشروها في البلاد الانكليزية لا يعتمدون على الذين يشترون الكتاب منهم نسخةً نسخةً ولا على الذين يشتركون فيهِ من جمهور القراء بل على باعة الكتب الكبار وعند كلٍّ من هؤلاء الباعة مخزن كبير فيهِ الوف كثيرة من الكتب المختلفة بل قد يكون فيهِ مليون كتاب اي اكثر مما في المكتبة الخديويّة عشرين ضعفاً فاذا اراد اصحاب مطبعة ان يطبعوا كتاباً عرضوهُ على باعة الكتب فيشتري كلٌّ منهم نسخاً كثيرة منهُ قبل طبعهِ فيعلم اصحابهُ كم يطبعون منهُ . وقد يُعرَض على بائع الكتب سبعون كتاباً مختلفاً في اليوم الواحد فيشتري نسخاً كثيرة منها كلها او من اكثرها

وغنيٌّ عن البيان ان ناشري الكتب وبائعيها تجّار لا يهمهم الاّ بيعها لكي يكسبوا منها فيستعملون كل الطرق المحلّلة لذلك ومن اشهرها الاعلان عنها في الجرائد على اسلوب يرغّب القرّاء في مطالعتها ولا سيما اذا كانت الجرائد واسعة الانتشار مرعيّة الكلمة